



"حبيبي.. مبارك لنا المجد".

أمسك شاوول الرسالة، وتفحصها جيدا، لم يفهم السطر الوحيد فيها، قلبها، لا يوجد حبر سري أو ما شابه. فقط التاريخ واسم المرسل، وتلك الكلمات.

• "زي هوو!" من ايمن يا ست لميس؟

وأكمل بعربية ثقيلة: شو عدا ما بدا؟

رفع شاوول حاجبيه في تعجب، ووضعها فوق كومة الرسائل الملعومة، والتي بحاجة إلى دورة أخرى من التفتيش والتمحيص، وأطفأ سيجارته فوق صورة الضيع، كعادته.

• هدولا أدوم، جماعة الأهمر. كمان مرة مش حخلي رسالتك توصل يا قحبة.

نظر شاوول إلى الساعة، فوجدها عدت السادسة والنصف مساء، وحان موعد عودته لزوجته ايستر، فهي الآن تحضر طعام العشاء وحدها مع بعض الانزعاج المستبطن من تأخره.

رجع شاوول إلى المنزل، فتح الباب، وضربه بعكازه، كما يفعل كل يوم إنذاراً بقدومه. قبل ايستر بحسب ما يقتضيه روتينها البارد. خلع بزّته العسكرية، وجلس يساعدها في تقطيع الملفوف، وسرعان ما انتهى، حتى همّ بالوقوف متعكزا على باب الثلاجة لجلب الميونيز، وإذ به يتواجه مع الرزنامة الملصقة عليها، فقد كانت الأيام مشطوبة بخط مائل، ممتد من أعلى اليمين حتى ذيل المربع اليسار، وصولاً إلى تاريخ اليوم 26 الشهر، وقد رُسمَ عليه قلب باللون الأحمر، مع يومين إضافيين من أيام شباط 2008. نظر شاوول صوب ايستر، وهي تقلّب صوص الزبدة المغمس بالكريمة مع الخردل والبصل لعمل طبقه المفضل: بييف ستريجانوف. سند نفسه على حفة الرخام الأسود، ووضع يديه على خصرها، وقبل رقبتها، مداعباً شعرها الأشقر المنسدل على ظهرها. فهو يحبّ ايستر بالرغم من حنقها



الدائم، ومزاجها المتعكر، ولا يملّ إطلاقاً من الاستجابة لرزنامتها، ومحاولاتها المستميتة للحمل، فهو أيضاً يتوق لأبوة ميخا.

• ما رأيك بلبلة حمراء بعد العشاء؟

ابتسمت ايستر وذهبت إلى البوفيه الزجاجي، وأخرجت منه نبيذاً مصنوعاً في مستوطنة كفار شمالي.

• ايستر: شو رأيك بقبينة معتقة من سنة زواجنا؟

• شاوول: من 2010؟

• ايستر: خبيتها لمناسبة مثل هاي.

كيف لأرض خصبة مجاورة لطبريا كتراب غويّر أبو شوشة، ألا تصنع نبيذاً خالص التخمير، وقد تجرع سمادا بطعم الدم عام 1948.

كانت ايستر في الرابعة والثلاثين من عمرها، عاشت نصف حياتها في روسيا، ونصفها الآخر في "إسرائيل"، بعد أن أقنع رجل رأس مالي أباه بالقدوم إلى أرض الميعاد والاستثمار فيها. أصبحت ايستر مكنتزة الجسم عندما بدأت تتعاطى هرمونات منشطة لتنشيط رحمها، وهي مواظبة على عدّ أيام الإباضة لديها، علّها تحبل بميخا. أما شاوول، فقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره، حانق على الفلسطينيين، منذ أن كان جندياً في وحدة دوفيدفان. أصيب بطلقتين، وهو في مهمة عسكرية في مخيم بلاطة أواخر نيسان 2003، اخترقت فخذ رجله اليمنى، مصيبة اياه بالشلل والعرج معاً. طلب شاوول بعد الحادث مباشرة بأن يعمل موظفاً في مصحلة السجون لإسقاط نغمته على الأسرى،



وتنغيص ما تبقى لهم من حياة داخل السجن بكامل الإصرار والترصد. جاءت الموافقة سريعا من مكتب التجنيد، كنوع من الرضى والتعويض لما حصل له أثناء الاشتباك المسلح، فهو جندي حَذِق، لا تشوبه شاردة أو واردة، يتميز بحنكة وقدرة عالية على التحليل والربط، ويعاني من ذاكرة فوتوغرافية، لا ينسى رائحة شمها منذ سنوات، أو نظرة خلخت موازينه أو تركت في أعماقه خوفا ما، تماما كنظرة الضيع له، وهو ينظر اليه رافضاً الاستسلام بالرغم من إصابته وقبل أن يُساق إلى السجن، حين خطَّ وصيته على جدران المخيم بدمه "ابقوا على العهد".

أشعل شاوول مقطوعة ديمتري شوستاكوفيتش second waltz لإثارة إيستر، وأخذ يقشّر عنها ثيابها، حتى قضيا ليلة حمراء على وقع آلات النفخ، علَّ بطنها ينتفخ في التسع شهور القادمة. ارتمى بعدها على الكنية، وسرعان ما طرقت باب ذاكرته رسالة لميس.

يوم آخر في مصلحة سجن جلبوع البارد المُصمّم بتشابه مضطرب مع سجن كيلمنهام غاول، إحدى السجون البريطانية التي عذب بها الثوار الايرلنديين. الفرق الوحيد أن كيلمنهام غاول حُوّلَ إلى متحف، بينما لم تزل جدران جلبوع رطبة، تمتص صرخات الأسرى وأنينهم. هي لعنة الإنجليز لا محالة، منذ وعد بلفور وحتى الاستعانة بهم كخبراء في فنون التعذيب، يستنسخون عويل معذبو الأرض ويعيدون إنتاجه، لإشباع فوقية الرجل الأبيض.

كومة أخرى من الرسائل الطازجة.

• لن أقرأ المزيد، سأحل شيفرة الرسائل المشبوهة بالأول، ومن ثم أتسلى على الجديدة منها. ليس لدي ما أفعله الا التنصت على حيوات المسوخ تلك.

استوقفته رسالة لميس مجددا، أي مجد تحدثت عنه هذه القحبة؟ ولماذا أصبحت رسائلها مختزلة هكذا؟ طرقت باب الذاكرة سجل الزيارات، هل زارت هذه البذيئة زوجها الشهر الماضي؟



• بدك اتضايقيني يا قحبة. استوقفت شاوول العبارة الأولى، والدعوة المفتوحة لخالد بالذهاب عميقا في دمه. أثارته نهاية الجملة، إذ شعر بعمق كلماتها، ما هي يا ترى احتمالات زهر الياسمين في ظل كل هذا الجفاف؟ لم على امرأة في الثلاثين من عمرها، وفي زهو أيامها كتابة هذا النثر الحسي الجميل للخنزير خالد؟

• خليني أشوف كمان رسالة.

• بحث في الأرشيف، فوجد أخرى، بتاريخ 2016-9-30

"حبيبي جلاب الفرح،

"في البدء كنا نحن، وكانت الأرض لنا، ولما نزل لنا، هكذا، منذ البدء حتى الأبدية البيضاء". (لميس، إصحاح 1:1)

قبل التحية والسلام، فكرتُ بكتابة هذه الآية لأشاركك بها، ولأضايق من يقرأ الرسالة قبلك، وكلّي ثقة كم يغار منا. كيف أنت؟ أراهن أنك لم تتغير البتة، بل زدت عنادا عما تؤمن به، عهدي بك أنك ما زلت تصحو باكرا لتتلو مايفستو الثورة كالفاتحة، وتهم بقراءة مزامير الشيخ ماركس. أنتظر أخبارك بفارغ الشغف، ولن أتوقف من الدعاء "عليك" بكل ما هو جميل. دمت حراً، لميس"

اغتاظ شاوول كثيرا من ثقة لميس، وتمسكها بخالد ومن إصرارها على مضايقته.

• لا يجدر لهذه الحشرات أن تشعر بالحب ودفء العائلة.

وتضايق لأنه تذكر ايستر، ومعاملتها الغليظة له وهي في أوج لطافتها، فهو يبرر لها أفعالها دوما ويعزو ذلك لعدم مقدرتهما على الإنجاب.



- ما كان الهم شهر متجوزين حتى أخذناه من البيت، وهيو مرمي إداري مثل الكلاب.. أول مرة 8 سنين ما اتعلم. خلص شو بدها بهيك عيشة؟ تروح اتعرض أحسنلها. فش حد شايف. مهني شرموطة أكيد.

- خالد: اليوم تحلايتكم عليّ.
- فخر: شو بدك تحلينا؟ شعيرية بسكر كمان مرة؟ خاف الله يا رجل. بكفينا وجع معدة، كمان حزاز!
- تدخل حافظ: شو المناسبة صفاوي؟
- خالد: اليوم التحلاي بلّوزة. كنت مخبي علبتين جيلو من أيام الخير لهالمناسبة. ومن اليوم بطلناها صفاوي هاي.

لمعت عيناه، واحتفى بنصره قائلا: من اليوم وطالع بتنادولي أبو المجد.

- حافظ: شو بتحكي؟ والله وعملتها؟ كف لأبو المجد رفااااق

هتاف علا القسم في تمام الثامنة مساء، تصفيق وضجيج تبريكات.

- ضياء: والله انك فحل يا رفيق.

ضحك ضياء حتى خشخش صدره وامتلأ بالبلغم، تبعته موجة سعال حادة.



• ضياء: والله الرطوبة رح تموتني.

• مهند: ما حد رح يموتك إلا الدخان والقهوة وأغاني الشيخ إمام اللي بتضلك تشحن حالك فيها.

• ضياء: بس هيك خبر، رح يموتني فرح. تحرمونيش هيك شهادة بتفش القلب! على راسي أبو المجد.

• خالد: والا شو؟ مفكرين رح يحرموننا الحياة بالسجن. بعملها ويعمل أبوها كمان.

• مهند: بس كيف عرفت؟

• خالد: هلا اتصلت لميس على الراديو وبعثتلي سلامات منها ومن مجد.

• ضياء: بلكن مجد ابن أبو ظافر فلنة، تبع البقالة اللي عندكم بصفا.

• خالد: ولك انت ما بتعرف لميس. كان صوتها برن، مع انو الراديو بوش ويا دوك الموجة لاقطة، بس وحياتكم

سمعتة برن رن، كاني كنت شايف ابتسامتها قدامي. ولك مهند: هات الطبله.

تجمع الرفاق في الغرفة، أربعة يعتلون الأبراش، واثنين متكئين على بساطتي صلاة، مع وعاء بلاستيكي أخضر للتطويل

عليه. بدؤوا بالتهليل بصوت متين: "اشتقتك اليك اشتقتك اشتقتك وما أحرني.. إلا حراس الطرق اليك، إلى وطني

..أأأأأه كم يحضرنني الحب لوجوه أعرفها، كم تقطعني المسافات ولا أقطعها.. اذا وضعوا في الدرب حواجزهم،

لكنيييي سوف أقطعها".



وما إن أكملوا حتى جاء السجناء جلعاد الأقرع، بهامته المتكورة، وصوته المزعج مع تمتعات أشبه بالشتائم.

• شيكت أسيريم، شيكت.

رجع كل واحد إلى برشه سوى طارق وخالد، اللذين افترشا الأرض، بالرغم من البرد القارس، والرطوبة المتغلغلة في الحائط الخشن.

• خالد: ولك طارق، زبطت متخيل شو زبطت. هذا انتصار، احنا عم نصنع حياة من جوا السجن.

• طارق: طول عمرك وانت هاريننا تنظير، والحب للشجعان. أخريتك تهرب 7 مليون رفيق هيك دفعة وحدة. خف علينا أبو المجد.

• خالد: ههههه ولك بتعرفني قديش بحب لميس، وأكيد كنت بحب يكون مجد نتاج علاقة حب سوية مثل باقي خلق ربنا. والوال شو مشتاق للميس. يا زلمة، حاولوا يجردونها من إنسانيتنا، من مواصلة الحياة. احنا أحرار أكثر منهم، ومنكمل.

• طارق: بتعرف رفيق: زماان ما شفنتك فرحان هيك، بؤبؤ عينك قادح شعلة نار، عم برقص.

رفع طارق سبابته بالهواء، وأخذ يندن: "دار القلّك، في مغرّلك.. طووول السنين ما أمهلك.. يا ناسج الروح في الحياة. فأكمل خالد معه: الحُب لك و الخُلد لك.. والمُلْك لك والمجد لك".

طرق الأقرع الحديد: قلنا شيكيت أسيريم أو بتفضوها بالزنانزين.



جاء موعد الزيارة المرتقب بعد أربعة أشهر من الإضراب، خاض فيها 24 أسيرا في جلبوع معركة الأمعاء الخاوية، كان خالد واحدا منهم. كانت شهور ثقيلة، ندد فيها الأسرى بالاعتقال الإداري، معلنين مقاطعتهم للمحاكم الجائرة، ومنع الزيارات عنهم، وإنهاء سياسة العزل الانفرادي، وتوفير وسائل تهوية وتدفئة داخل الغرف. فقد عانى الأسرى من سياسة الإهمال الطبي، فقد نُقِلَ رفيقين، وثلاثة من فتح، وخمسة من حماس، وشبليين إلى مستشفى الرملة لتسكين آلامهم بحبة أكامل، وتبين بعد أشهر أن أمجد الجعبري من الخليل ومحمد منصور من اللد مصابين بسرطان الدم وسرطان الدماغ، وهما يسيران إلى حتفهما بصمت، بدون علاج كيماوي، كما أن العشرة الآخرين يعانون من أمراض مزمنة تتراوح بين الحصوة، والتهاب في القولون، مع وجع أسنان حاد، ونوبات النقرس العسيرة من كثرة البقوليات التي يتجرعها الأسرى في وجباتهم الثلاثة. فقد طالب الأسرى بإغلاق مسلخ الرملة لعدم صلاحيته بتأمين العلاج اللازم، وإلزام إدارة السجن إجراءهم للفحوصات الطبية بشكل دوري، وإخضاع من هم بحاجة إلى العمليات الجراحية بشكل سريع، وإطلاق سراح الأسرى المرضى خاصة ذوي الإعاقة والأمراض المزمنة.

بدأت الرحلة صباح الأربعاء من الخامسة صباحا، أمام مقر الصليب الأحمر. روح أحمر، وقميص أبيض فضفاض، مع بنطال أسود، شعر أملس، تماما كما يحبه خالد. جلبت بعض الملابس الداخلية، وأشبعتهم بعطر سكاندل الذي يحب أيضا، مع بعض الخبثاء منها لاستحضار قارورة العطر وغطائه المثير، تعتليه ساقين مفتوحتين إلى الأعلى، في دعوة مفتوحة منها لممارسة الحب، وهي واثقة "بالفضيحة" التي ستعشعش رأسه حالما يشتمّ الشباحات الجديدة.

أخذت لميس كامل الحيطلة لعدم كشف أمرها، فقد تكون هذه الزيارة الأخيرة لها قبل الولادة، وعليها أن تحرص جيدا، أن لا يشك بها أحد، لكي تكتمل الزيارة على أكمل وجه، وترى الفرحة بأعين خالد.

- "ستكون رحلة جبلية صعبة" لحامل في شهرها الخامس مع أعراض الحمل المضنية، تمتعت لميس. لا بأس، لا يهم، المهم أننا انتصرنا، ونزعا حقا بالحياة من أفواههم.



باص الصليب المكتظ بالعائلات، وجوه مألوفة تسأل عن بعضها البعض، وتطمئن. أطفال يحملون أسماء مدن فلسطينية محتلة، تستطيع سماع اسم حيفا، وبيسان، وبافا، حتى أن هناك طفلة رضيفة تدعى فلسطين. غريب كيف تصبح الأسماء برمزياتها الذخيرة الوحيدة للتمسك بالوطن البسيط، نحملها لنغيظ بها العدو، وتحملنا نحو الحلم والعودة. بعض الوجوه متوترة من احتمال إرجاع الأغراض التي تحملها للأسير من كتب وغيارات، وغيرها من اللوازم الشخصية. ولكن ما يجمع جميع الذين في الباص أنهم متحمّلين وفي أبهى حُلّة، كأنه عيد.

وصلت الحافلة تحت إجراءات أمنية مشددة، تفتيش أول، وثانٍ وثالث. تحاول لميس الحفاظ على مظهرها، وتماسك معدتها كتلة واحدة، خوفا من الاستفراغ.

دخل الجميع القاعة المليئة بالزجاج، والهواتف السلوكية الملتوية، اتخذ الجميع مكانه في انتظار أبنائهم وزوجاتهم. حتى اعتلى شاوول غرفة التفتيش الداكنة، مصوّبا نظره نحو لميس. شغل الآلات البيغضنة للتنصت على المكالمات وتسجيلها، وفتح الخط على خالد ولميس.

• خالد: بتعرفي انك حليانة؟

• لميس: طبعا مش صرت تو إن وون، أنا ومجد.

وما إن وضعت يدها على قميصها، ليطل تكوّره الصغير، وإذ بشاوول يصيح من غرفة التحكم، وقد جن جنونه لوهل ما رأى.

• يا قحبة... عملتوها من وراي.

استشاط شاوول غضبا، وأوعز للضابط بإنهاء الزيارة في أول دقيقتين وسط جلبة وصراخ الأمهات والآباء والزوجات والأسرى وخوف الأطفال الشديد من هول المشهد.



أمسكت مجنذتان ذراعَي لميس، وساقتها إلى الخارج، واقتحمت وحدة القمع المتسادا صفوف الأسرى في ضرب وحشي لهم، واستهداف غليظ لعظامهم.

وُضِعَت لميس بمعزلٍ وحدها لغايات التحقيق، ولم تنبس ببنت شفة بالرغم من أسئلة المحققات والمحققين لها، موجّهين لكلماتهم "لابن الحرام" في أحشائها، وبديها المعصوبتين وراء ظهرها، حتى أفرجوا عنها مع بضع كدمات ومنع أمني من الزيارة.

مرت عدة شهور جُدِدَ فيها اعتقال خالد بقرار مخابرات، كإجراء عقابي له لتهديبه نطف الحياة.

رزمة رسائل جديدة تصل جلبوع في يوم خريفي من أوائل شهر تشرين الأول، استلمها شاوول ببطء أرعن والشعر يأكل ذقنه من شدة البؤس. أخذ يدخن سيجارته، ويقرأ الأسماء، حتى وصل اسمها، لميس، فأطفأ سيجارته في وجه الضبع، كعادته، وفتح الرسالة في عجلة.

"حبيبي، مبارك لنا المجد مرة ثانية وثالثة ورابعة ومئة وواحد بعد المئة. فليعلم الجبان الذي يقرأ الرسالة قبلك أني أقاوم بك ومعك وفيك. ننتظرك، لميس"

الكاتب: [هند شريدة](#)